مجلة الحكمة للدراسات الإسلامية
Eissn : ...-..... Issn : 2353-043X

المجلد 03/ العـدد 01: (2016)، ص 56- 74

الحوار المسيحي الإسلامي من التكفير والقتل إلى المحبة والرحمة

الأستاذة: نادية الوافي
جامعة محمد الخامس . أكدال
كلية الأداب والعلوم الإنسانية الرباط-المغرب

مقدمة :

إن المتتبع لتاريخ حوار الأديان في العصر الحديث يلاحظ دون عناء اهتمام رواده بإحياء القيم الإسلامية السامية التي تحظى باتفاق مختلف المجموعات الدينية والثقافية والإثنية.

والملاحظ أن ما طرح من قضايا عقدية لاهوتية في القرون الوسطى في إطار المناظرات والجدل والردود لا يمكن أن يسهم في تحقيق التواصل الروحي والمعرفي بين مؤمني الديانات المختلفة.

ولذلك رفعت ملتقيات الحوار بين الأديان شعارات ذات بعد إنساني كوني يتجاوز الخصوصيات العقدية ويتحرر قدر الإمكان من هيمنة الذاكرات الدينية بكل تراكماتها التاريخية والنفسية.

وتعكس هذه التجارب الحوارية حاجة الإنسان المعاصر لفكر ديني يحيي ثقافة المحبة ويرسخ مفهوم الرحمة باعتباره مفهوما تأسيسيا في مختلف الأديان.

ونجد اليوم على مستوى المشهد الثقافي العربي الإسلامي والدولي أصداء بخطابات تشاؤمية انتكاسية لا ترى أهمية في حوار الأديان باعتباره ظلا طوال عقود من الزمن حبيس قاعات الملتقيات لا يكاد يبرحها ولم يستطع أن يقتحم حياة الإنسان وأن يعدل سلوكه وما ترسخ في ذاكرته الدينية من صور نمطية مشوهة.

ولا نبالغ إذا قلنا إن أسس الحوار الذي نتحدث عنه يكمن أساسا في ثنائية الرحمة والمحبة. وهذا يعني أننا في حاجة ماسة لما يمكن تسميته بحوار الرحمة والمحبة الذي يتحول من خلال مجموعة من الآليات تلازم المرء في مختلف مراحل حياته بداية من الأسرة ومرورا من المدرسة والجامعة ووصولا إلى المجتمع ومؤسساته.

1. بروز تيار العنف :

أما عن تشكل تيار العنف وبروزه، فقد تكونت في الستينات من القرن الماضي، تيارات مركزية تبنت مجموعة من الأفكار، خلاصتها تكفير شمولي، شمل الأنظمة السياسية والأفراد والمجتمعات بكل مكوناتها، بناء على قراءات خاطئة لنصوص شرعية، وبناء على إخفاق في تنزيل حقائق الشريعة على الواقع.

ومن تلك المقولات أنهم يكفرون الحكام، ويكفرون المحكومين، لأنهم رضوا بهم، ويكفرون العلماء، لأنهم لم يكفروا الحكام، إجراء لأصلهم في أن من لم يكفر الكافر فهو كافر.

وقد قالوا بترك صلاة الجماعة والجمعة في غير المساجد الأربعة التي هي المسجد الحرام والمسجد النبوي، ومسجد قباء، والمسجد الأقصى، لأن ما سواها من المساجد هي مساجد ضرار لا تجوز الصلاة فيها[(1)].

وتبعا لهذه التصورات، فقد دعوا بإلحاح شديد إلى إحياء الجهاد الذي سموه الفريضة الغائبة، وقد كتب محمد عبد السلام فرج، وهو أحد منظري الجماعة الإسلامية بمصر، كتابا تنظيريا لمفهوم الجهاد في سنة 1981 وعنونه بـ "الفريضة الغائبة"، وهو الكتاب الذي كان له أكبر الأثر في إدخال المجتمعات الإسلامية في دائرة العنف، حتى رآه بعض الباحثين منطلق الفكر الجهادي[(2)].

ويقول : <<فالبدء بالقضاء على الاستعمار هو عمل غير مجد، وغير مفيد، وما هو إلا مضيعة للوقت، فعلينا أن نركز على قضيتنا الإسلامية وهي إقامة شرع الله في بلادنا>>[(3)].

وقد استند الفكر التكفيري إلى عدة مرتكزات جعلها أساس القول بالتكفير، وهي قاعدة التكفير بسبب انخرام ركن من أركان الإيمان، ثم قاعدة التكفير بسبب ترك العمل واقتراف الكبائر، ثم قاعدة التكفير تبعا لحكم دار الإقامة.

---

[1]- الموسوعة الميسرة الأديان والمذاهب 338/1. الحكم وقضية تكفير المسلم، سالم البهنساوي ص : 12، دار البحوث العلمية، الكويت، ط3، 1985.

[2]- الحركات الإسلامية في مصر حسن حنفي ص : 133 الهدى المؤسسة الإسلامية للنشر 1985.

[3]- الفريضة الغائبة محمد عبد السلام فرج، ص : 15.

وقد انتهى التفريع على هذا التأصيل إلى أن ترك العمل هو إخلال بالإيمان وأن مرتكبي الكبائر كفار، وأن ديار المسلمين ليست دار إسلام.

كما أعلن هذا الفكر الجهاد على البلاد غير الإسلامية، وتوقع زعماؤه فتح روما عاصمة إيطاليا، وتحدثوا أخيرا عن فتح الأندلس، وسموا الكثير من الوقائع غزوات، فتحدثوا عن غزوة منهاتن، وغزوة مدريد، وغيرها.

وقد أوحى حديثهم عن فرضية الجهاد بأن الإسلام لا يعرف أسلوبا غيره في التعامل مع الغير، متجاهلين في ذلك أن مواقف رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين من بعده مع غير المسلمين كانت أوسع من أن تحصر في المقاتلة. فقد كان من تصرفاته عليه السلام الصبر على غير المسلمين، ودعوتهم إلى الله والتحالف معهم فقال عليه السلام : <<أيما حلف كان في الجاهلية لم يزده الإسلام إلا شدة>>[1] (رواه مسلم).

2. التكفير بارتكاب الذنوب والكبائر :

قد يشكل على من لم يتمرس بالخطاب الشرعي وجود نصوص يفضي العجز عن فهمها إلى أخطاء فكرية وعقدية، من أشنعها الوقوع في تكفير المسلمين، بسبب فهم ظاهري لتلك النصوص.

وقد يقع هذا للبعض حين يقرأ النصوص التالية :

قول الرسول صلى الله عليه وسلم : <<لا ترجعوا بعدي كفارا ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض>>[2].

وقوله عليه السلام : <<سباب المسلم فسوق وقتاله كفر>>[3].

وقوله : <<أيما أمرئ قال لأخيه يا كافر فقد كان باء به أحدهما>>[4].

وقوله : <<ليس من رجل ادعى لغير أبيه وهو يعلمه إلا كفر...>>[5].

---

[1]- صحيح مسلم كتاب الفضائل. باب مؤاخاة النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه رضي الله تعالى عنهم.

[2]- رواه البخاري، كتاب الأضاحي، باب من قال الأضحى بوم النحر.

[3]- صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر.

[4]- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من كفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال.

[5]- صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب نزل القرآن بلسان قريش.

فظاهر هذه النصوص يجعل اقتتال المسلمين كفرا. وقول الرجل لأخيه يا كافر، مدعاة لعودة الكلمة عليه. كما أن الحديث يجعل التبرؤ من النسب كفرا.

لكننا إذا عرضنا هذه النصوص على نصوص أخرى يتبين أن الظاهر المتبادر غير مراد.

فإذا كان اقتتال المسلمين كفرا كما نص عليه الحديث، فإن القرآن لا ينفي عن المتقاتلين الإيمان، فيقول الله تعالى :**[وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما.... إلى أن يقول : إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم]** (الحجرات 9 – 10) فهم مؤمنون بالنص القرآني رغم الاقتتال.

وأما قوله عليه السلام : <<إذا قال المؤمن لأخيه يا كافر>>، فيكفي التعبير فيه بلفظ الأخوة لإفادة استمرار علاقة أخوة الإيمان.

لهذا كله، كان من دأب العلماء التحذير من الوقوع في خطأ تكفير المؤمنين بسبب الذنب. وقد أراد البخاري التنبيه إلى هذا، فوضع ضمن صحيحه عدة أبواب لتحقيق هذه الغاية. فقال : باب كفران العشير. وكفر دون كفر. وباب المعاصي من أمر الجاهلية لا يكفر صاحبها بتركها إلا بالشرك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم : إنك امرؤ فيك جاهلية. وباب وإن طائفتان من المؤمنين... فمساهم المؤمنين. وباب ظلم دون ظلم[1].

وقد تبين من صنيع البخاري وغيره أن للكفر إطلاقين : إطلاقا حقيقيا، وآخر مجازيا، فالحقيقي هو : المقترن بالإشراك بالله، وبإنكار معلوم من الدين بالضرورة، والمجازي هو ما عبر عنه قوله : كفر دون كفر.

وقد عزز البخاري موقفه بقول النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: <<إنك امرؤ فيك جاهلية>>، أي خصلة من خصالها، وهو لا يقصد أن يكون أبو ذر رجلا جاهليا، وكذلك يقال عن الفعل إنه كفر من غير أن يراد أن المتلبس به كافر.

[1]- صحيح البخاري، كتاب الإيمان.

يقول أبو حنيفة : <<لا تكفر مسلما بذنب من الذنوب وإن كانت كبيرة إذا لم يستحلها، ولا نزيل عنه اسم الإيمان، ونسميه مؤمنا حقيقة، ويجوز أن يكون المؤمن فاسقا غير كافر>>[1].

يقول الإمام أحمد : <<من مات من أهل القبلة موحدا يصلى عليه ويستغفر له،ولا تترك الصلاة عليه لذنب أذنبه صغيرا كان أو كبيرا، وأمره إلى الله عز وجل>>[2].

يقول الإمام البخاري : <<لم يكونوا أحدا من أهل القبلة بالذنب لقوله : [إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن شاء"] (النساء 116).

يقول أبو زرعة وأبو حاتم الرازيان : [لا نكفر أهل الملة بذنوبهم، ونكل أمرهم إلى الله عز وجل][3].

يقول أبو الحسن الأشعري : <<فإن قال قائل فحدثونا عن الفاسق من أهل القبلة أمومن هو ؟ قيل له نعم مؤمن بإيمانه، فاسق بفسقه وكبيرته>>[4].

ويقول الإيجي : <<إن مرتكب الكبيرة من أهل الصلاة مؤمن>>[5].

ويقول عمر النسفي : <<الكبيرة لا تخرج العبد المومن من الإيمان، ولا تدخله في الكفر>>[6].

وقال أبو عبد الله بن بطة الحنبلي : <<قد أجمعت العلماء لا خلاف بينهم أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا تخرجه من الإسلام بمعصية، نرجو للمحسن، ونخاف على المسيء>>[7].

---

[1]- شرح الفقه الأكبر لأبي حنيفة الملة، علي القاري، تحقيق مروان الشعار، 155 دار النفائس، بيروت 1997.

[2]- أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة. اللاكائي. 1 ز 164.

[3]- شرح اعتقاد أهل السنة 177.1

[4]- كتاب اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع لأبي الحسن الأشعري تحقيق عبد العزيز البدران 154. دار لبنان للطباعة والنشر 1978.

[5]- المواقف للإيجي 389.

[6]- شرح العقائد النسفية لسعد الدين التفتازاني تحقيق أحمد حجازي السقا ص .71 مكتبة الكليات الأزهرية 1988.

[7]- شرح الإنابة على أصول السنة والديانة لابن بطة العكبري تحقيق : د. رمضان نعسان معطي 292 مكتبة العلوم المدينة المنورة 2002.

وقال الطحاوي : <<ولا نكفر أحدا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله، ولا نقول لا يضر مع الإيمان ذنب لمن عمله>>[1].

وعلى الرغم من إجماع أهل السنة على هذا، فإن الفكر التكفيري قد اختار موقفا مخالفا انتهى به إلى التكفير بالذنب، فكانت تداعيات هذا الاختيار وخيمة على أرواح الناس وأمنهم وسلامتهم.

3. التكفير تبعا لحكم الدار :

يمكن اعتبار التكفير بسبب الإقامة في دار توصف بأنها دار حرب، أخطر أنواع التكفير، لأنه حكم جماعي كاسح يعم كل المقيمين في بلد معين، بصرف النظر عن درجات تدينهم ونفورهم من الكفر، وتحفظهم من الوقوع في دواعيه.

لقد استند الفكر التكفيري إلى قراءات خاطئة ومجتزأة لما تحدث عنه الفقه الإسلامي، وهو يتناول موضوع دار الإسلام ودار الحرب، في معرض حديثه عن المجالات الترابية لسيادة الدولة الإسلامية.

إن الفقه الإسلامي يقسم العالم إلى عدة مناطق، هي دار الإسلام، ودار الحرب، ويتفرع عن دار الإسلام دار أخرى هي دار البغي. وهي جزء من دار الإسلام استبد بها مجموعة من المسلمين لهم شوكة فانفصلوا عن الجسم الأصل، وهي تشمل كل بلاد الإسلام التي استولى عليها انفصاليون بسبب قوتهم الذاتية، أو بسبب استقوائهم على بلادهم بقوى أجنبية. وإلى جانب هذه الأنواع الثلاثة دار أخرى هي دار العهد، وتسمى دار الموادعة ودار الصلح، وهي كل بلاد صالح المسلمون أهلها على نحو معين من التعامل قد يكون خراجا، ولكنه بكل تأكيد ليس جزية، وقد يكون مجرد تبادل تجاري أو تعاون اقتصادي. فقد عقد عبد الله بن سعد صلحا مع أهل النوبة على قيام تبادل تجاري بينهما، وكتب معاوية بن أبي سفيان لأهل أرمينية عهدا أمنهم فيه على استقلالهم الداخلي.

وتعتبر دار العهد نوعا ثالثا، إذ ليست دار إسلام ولا دار حرب. ولعل هذا النوع من البلاد المرتبطة بمعاهدات دولية وإقليمية وثنائية هو الذي أصبح العالم المعاصر يتجه إليه، منذ نهاية الحربين العالميتين وميلاد عصبة الأمم، وهيئة الأمم المتحدة، وما عقدته المجموعة الدولية من معاهدات تتناول حالات السلم والحرب.

---

[1]- شرح العقيدة الطحاوية لأبي العز الدمشقي تحقيق : د. عبد الله بن عبد المحسن التركي 2.432 مؤسسة الرسالة 1987.

4. الموقف الفقهي من حكم دار الإقامة :

حينما اعتمد اتجاه التكفير القول بتبعية الإيمان أو الكفر لحكم الدار، استند إلى قول واحد وغيب بقية الأقوال، فأوهم بفعله ذلك أنه هو القول الوحيد والنهائي في الموضوع. ومن أجل الوصول إلى الحقيقة الفقهية كما هي، يتعين استعراض الاتجاهات الفقهية في الموضوع.

أ. الاتجاه الأول :

وهو اتجاه يجعل معيار القول بحكم الدار هو وجود الحاكم المسلم الممثل للسلطة الحاكمة[1]. فإذا كان الحاكم كافرا اعتبر البلد بلد كفر، وإن كان مسلما اعتبر البلد بلد إسلام.

يبدو أن ربط حكم الدار بشخص الحاكم وبدينه لا ينضبط حاليا مع واقع الحكم في العالم، ومع انتشار مفهوم تداول السلطة الذي لا يستبعد أن يلي حكم بلد حاكم غير مسلم، ثم يعقبه حاكم مسلم، أو يكون الحاكم غير مسلم، وتكون غالبية المحكومين مسلمين كما وقع ذلك مرارا في القارة الإفريقية.

ب. الاتجاه الثاني :

وهو يجعل معيار القول بإسلامية الدار أن تظهر فيها أحكام الإسلام، ويأمن الناس على دينهم، ذميين كانوا أو مسلمين، ودار الإسلام على ما يرى أبو حنيفة لا تصير دار كفر إلا بثلاثة شروط هي :

أن تكون أحكام الكفر ظاهرة فيها، وأن تكون متاخمة لبلاد الكفر متصلة بها لا يفصلها عنها دار إسلام أخرى، وأن لا يأمن فيها مسلم ولا ذمي على دينه[2].

وبناء على هذا، فإن دار الإسلام يمكن أن تكون بلدا كل سكانه أو أغلبهم مسلمون، أو بلدا غالبية أهله غير مسلمين أو بلدا يحكمه غير المسلمين، مادام المسلمون والذميون فيه قادرين على إظهار أحكام دينهم[3].

---

[1]- إعلام الموقعين، وانظر عبد العزيز المسعود : الأمر بالمعروف والنهي عن المفكر وأثرهما 528/1.

[2]- رواه الإمام أحمد في المسند.

[3]- رواه الإمام مسلم.

وقد أزال الكاساني الكثير من الإشكال عن القضية حين قال : إن المقصود من إضافة الدار إلى الإسلام والكفر ليس هو عين الكفر والإسلام، وإنما المقصود هو الأمن والخوف... والأحكام مبنية على الأمان والخوف لا على الإسلام والكفر[1].

ج. الاتجاه الثالث :

وهو اتجاه يجعل معيار إسلامية الدار ظهور أحكام الإسلام، وقال ابن قيم الجوزية : هو «رأي جميع العلماء»[2]. وعبر عن هذا أبو يوسف لما قال : «إن دار الإسلام هي التي تكون فيها أحكام الإسلام ظاهرة، وإن كان جل أهلها كفار». وقال الكاساني : «لا خلاف بين أصحابنا في أن دار الكفر تصير دار إسلام بظهور أحكام الإسلام فيها»[3].

والمراد بظهور أحكام الإسلام، أن يتمكن المسلمون من ممارستها بلا خوف ولا استتار، وأن تكون تلك الأحكام مما يعلن به عن انتماء المجتمع إلى الإسلام، يقول ابن يحيى المرتضي : «دار الإسلام ما ظهرت فيه الشهادتان والصلاة ولم تظهر فيها خصلة كفرية ولو تأويلا، إلا بجوار أو بالذمة أو بالأمان من المسلمين[4].

النتائج التي حققها العنف سؤال صدق وتجرد، نصحا ليكتشفوا أن الخسائر كانت فادحة.

فقد كان من نتائج التفجيرات تقوية المد العدائي ضد الإسلام، بتوفير أدلة مادية وظفها مشروع التخويف من الإسلام أوسع توظيف، واستخدمها دعاة الثقافات الأخرى، فيقول أحد المستغلين لهذا الوضع : «إن الله في الإسلام يطالبك بإرسال ابنك ليموت من أجله، أما في المسيحية فإن الرب يرسل ابنه ليقتل من أجلك».

وقد حرضت شعارات الإرهاب ووعيده المتكرر كثيرا من الشعوب ضد الإسلام والمسلمين، بعدما سمعت تلك الشعوب أن الهدف المستقبلي هو بلادها، وأن فتح إيطاليا، واسترجاع الأندلس عن طريق الجهاد هو ضمن أجندة المسلمين، ونحن إن

1- سورة الأعراف 78/7.

2- أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية 366.1

3- بدائع الصنائع 519.9

4- معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية د. محمود عبد المنعم 72/2 دار الفضيلة، القاهرة.

كنا نأمل أن يتحول العالم كله إلى الإسلام، فإننا نرجو أن يتم ذلك بالحوار، بتفعيل قوة المنطق قوة المنطق ونصاعة الحجة والبرهان، لا باستعمال قوة السلاح الذي نعلم وضعنا من امتلاكه والتحكم فيه.

وقد ساعدت العمليات الإرهابية على رص صفوف غير المسلمين، وعلى تكتلهم وتذويب خلافاتهم، وهم يخططون لمواجهة الإرهاب.

وقد استفادت إسرائيل بكيفية أخص من الوضع، حين قدمت نفسها للعالم على أنها مستهدفة بالإرهاب، مع أنها مغتصبة للأرض، ولذلك أصبح العدوان ضد الشعب الفلسطيني لا يثير التعاطف والاهتمام المنتظر.

وكان من الآثار المباشرة للإرهاب تنشيط المد العنصري، وتقوية الاتجاهات اليمينية في الغرب، وأصبحت الرغبة في التخلص من الوجود الإسلامي والسعي إلى التمايز الثقافي جزءا من وعود الطبقة السياسية، وانعكس كل هذا سلبا على الأقليات الإسلامية، كما تضررت منه الجاليات المقيمة في ديار الغرب، فأصبح التآكل في حريات الممارسة الدينية ظاهرة مائلة.

إن الخلاصة من كل ما سبق عن ظروف ونشأة الفكر التفكيري وعن أسسه ومستنداته وتراجعاته، أن الأمر يتعلق بفكر نشأ عن قراءة غير سليمة للنصوص الشرعية، فأفرز تيارا يحتكم إلى قوة السلاح، فخرج عن سياق التعامل الذي عرفته الأمة الإسلامية التي وفرت الأمن لأفرادها، رغم ما قد يكون بينهم من اختلافات في تفاصيل الآراء العقلية والسياسية.

والمطلوب، راهنا، أن يتنبه المجتمع بكل مؤسساته العلمية، وبجميع مصادر التوجيه فيه، إلى وجوب العودة إلى المواقع التي يتشكل فيها الوعي، وتصنع فيها الممانعة من أجل تفعيل رسالتها.

والمتعين، أيضا، أن تفسح وسائل الإعلام، بكل أصنافها وبما لها من قدرة على التواصل، المجال واسعا للتعريف بالثقافة الإسلامية الرصينة، في أفق إنجاز مشروع بناء الذهنية الإسلامية القادرة على النقد والتمحيص، وعلى أمل تقوية الرصيد المعرفي للمواطن الذي يجب التعويل على وعيه وإسهامه في هذا المجال.

5. تطور مصطلح الهرطقة في العهد الجديد :

في «العهد الجديد» تطور استعمال كلمة هرطقة، فانحصر في الدلالة على مذهب ديني لطائفة من الناس تجمعهم مع آخرين رابطة دينية معينة، ولكنهم

يتميزون عنهم بآراء مغايرة أو تأويلات خاصة مخالفة، تجعل منهم فرقة في داخل الدين العام.

ولهذا أطلقت هذه الكلمة على كل المذاهب اليهودية، فقيل الصدوقيين، وأطلقت على مذهب الفريسين، بل أطلقت أيضاً على الديانة المسيحية، ففي «سفر الأعمال» يُوصف القديس بولس الرسول على أنه «إمام شيعة (هرطقة) الناصريين». وفي «سفر الأعمال» أيضاً يقول القديس بولس الرسول: «حسب الطريق الذي يقولون (هرطقة) أعبد إله آبائي».

يلاحظ في النصوص أنها عدّت الهرطقة، في نظر اليهود، إما أن يكون استخدامها حسناً باعتبار المسيحية مذهباً، أو مدرسة، أو طائفة، مثلها مثل المذاهب اليهودية، كالفريسين والصدوقيين وما شابههم، أو قد يكون لها هنا معنى سيئ باعتبارها مذهباً معادياً انحرف، في نظر اليهود، عن الصواب، وخرج عن الحق الإلهي، وهو المعنى الذي تطورت إليه هذه الكلمة اليونانية فيما بعد.

ومهما يكن من أمر هذه الكلمة، فقد استخدمت بمعناها السيئ في «العهد الجديد»، أي بمعنى الفرقة التي انحرفت عن الحق الإلهي. فأحياناً تجيء مرادفة للشقاق الضار بسلامة الكنيسة، ولذلك عدت من أعمال الجسد وأفعاله الأثيمة التي تحرم صانعيها من دخول الملكوت.

ففي «كورنثوس 2» 19,18:11 «أسمع أنه توجد بينكم انشقاقات، وأصدق بعض التصديق، لأنه لا بد من أن يكون بينكم هرطقات أيضاً، ليكون المزكون طاهرين بينكم». وفي «بطرس2» 1:2 «وكما يوجد أيضاً في الشعب أنبياء كذبة، كذلك سيكون فيكم أيضاً معلمون كذبة الذين يدسون هرطقات مهلكة».

في العصر الرسولي الأول اتخذت الكلمة المعنى نفسه، وأخذ هذا المعنى يسود شيئاً فشيئاً حتى أصبح تقريباً هو المعنى الأول، الذي يقفز إلى الذهن عند سماع هذه الكلمة. فإذا ذكرت هذه الكلمة فهي للدلالة على التعاليم الكاذبة المخالفة للتعليم الرسولي بامتداد الكنيسة ونمو سلطانها الروحي، باعتبارها حامية الإيمان الرسولي، ومستودع العقيدة المسيحية القويمة، ومكفّرة لكل تعليم غريب عن تعاليم الكنيسة، وأصبحت الهرطقة شيئاً فشيئاً جريمة شنعاء، يعد مؤسسها أو المنتمي إليها خارجاً عن تعاليم الكنيسة ومعادياً للملة.

وقد ذهب بعض القديسين إلى قبول أي اتهام في أخلاقه، إلا الاتهام بالهرطقة.

لذا فكلمة هرطقة ليست وصفاً موضوعياً، وإنما تنطلق من وجهة نظر من يستخدمها الذي ينتمي إلى جماعة كانت قد اتفقت في ما بينها مسبقاً على ما هو «أورثودوكس»، أي صحيح وملتزم بالأصل، أي أصولياً. فمن أجل أن يوجد من يمكن وصفه بالمهرطق، فإنه يجب أن يسبقه وجود نظام راسخ من المعتقدات يوصف بأنه أورثودوكسي.

وتستخدم كلمة هرطقة لوصف أي رؤية لا تتوافق مع الراسخ في أي مجال.

وفي المقابل فإن من يُوصَفون بأنهم هراطقة يرون أنفسهم أنهم إصلاحيون أو مجددون أو أنهم يُنَقُّون العقيدة ويخلصونها مما شابها، أو أن فهمهم لها هو الفهم الأصلي الذي انحرفت عنه الجماعة التي تصف ذاتها بأنها «أرثودكسية».

6. مفهوم التكفير والقتل في الإسلام :

حذر الشارع من التكفير أشد التحذير ونفر من الإنجرار وراء فتنته أعظم التغيير، فلو لم يرد فيه إلا قول النبي (ص) : <<ومن دعا رجلا بالكفر، أو قال عدو الله، وليس كذلك إلا حار عليه>>[1]، لكان فيه أبلغ زاجر، قال ابن حجر الهيتمي : <<هذا وعيد شديد، وهو رجوع الكفر عليه، و عداوة الله له.... فلذلك كانت إحدى هاتين اللفظتين إما كفرا بأن يسمي المسلم كافرا أو عدو الله من جهة وصفه بالإسلام، فيكون قد سمى الإسلام كفرا ومقتضيا لعداوة الله ؛ وهذا كفر، وإما كبيرة بأن لا يقصد ذلك فرجوع ذلك إليه حينئذ كتابة عن شدة العذاب والإثم عليه>>[2].

كيف وقد جعل الشارع تكفير المؤمن كقتله، وذلك في قوله (ص) : <<من لعن مؤمنا فهو كقتله، ومن قذف مؤمنا بكفر فهو كقلته>>[3]، وما ذلك إلا لكون التكفير من أعظم أسباب استسهال إراقة الدماء المحرمة، والاستهانة بإزهاق الأنفس المعصومة.

إن القتل في القران يعنى الكفر بآيات الله أو الكفر بدين الشرك أو الكفر يعنى في كلا الأحوال القتل للنفس وليس للجسد.

---

[1]- أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، 80/1.

[2]- الزواجر عن اقتراف الكبائر. 273/2

[3]- أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعان، 4/7/111

ولذلك قال الله تعالى [: وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلاَ يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُوراً]الإسراء33 إن القتل للنفس (باي سلاح تقتل النفس؟) بالحق وما هو الحق، "هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ] الصف9 الحق هو دين الله هو القران. وقتل النبيين هو الكفر بالآيات لان النبي هو أية وليس واحد من الناس [وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَن نَّصْبِرَ عَلَىَ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُواْ مِصْراً فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ" البقرة61 الله يقول في هذه الآية [وَبَآؤُوْاْ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ]، يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق فالنبيين هم آيات الله.

7. الكفر والتكفير:

الكفر من الناحية العقدية لا يكون فقط خارج الإسلام قد يقع فيه المسلم إذا أتى من الأعمال ما يجر عليه الردة والكفر كأن ينكر معلوما من الدين بالضرورة، أي يجحد فرائض الإسلام الكبرى وثوابته وأكتفي بالاستشهاد بنص من الفقه المالكي للإمام القرفي رحمه الله من كتابه "الذخيرة" يقول فيه من جحد وجوب صلاة من الخمس أو ركوعها أو سجودها كفر، لأنه معلوم من الدين بالضرورة، وكل من جحد ما علم من الدين بالضرورة فهو كافر في الصلاة أو غيرها، وإن اعترف بالوجوب ولم يصل فليس بكافر خلافا لابن حنبل، وقال ابن حبيب يكفر بترك الصلاة والزكاة والصوم والحج.

التكفير هو الحكم بالكفر من حيث الإطلاق أو التعيين، على الأفراد أو الجماعات بما لم يجعله الشارع كفرا وذلك مثل الحكم على أهل المعاصي التي هي كبائر لا تصل إلى حد الكفر حيث إن الشارع اعتبر أهلها مسلمين من أهل القبلة وإنما وقعوا فيما وقعوا من هذه الكبائر تهاونا أو تأويلا أو تعلقا بالوعد بالتوبة و تغريبا لجانب الرجاء.

8. الدائرة الأخلاقية القرآنية :

إن من دواعي الإذعان لهذا الإعجاز القرآني من حيث الهداية والتشريع هو أن نجد في آيتين دائرة أخلاقية متكاملة تتكفل بالسمو الأخلاقي الذي ينشده الجميع ويسعى إليه كل من أراد أن يرتقي إلى مدارج الكمال. وسنحاول في هذا الباب تقديم عرض عام لتلك الوصايا بوصفها منظومة أخلاقية متكاملة ومقارنتها مع نظائرها التوراتية والإنجيلية.

ففي الآية القرآنية التي نعرضها نرى ضخامة المثل ورصانة القيم تنحدر من آية اختصرت المسيرة الأخلاقية الإنسانية وذلك من خلال قوله تعالى :[قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكمْ عَلَيْكمْ أَلاَّ تُشْرِكواْ بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلاَ تَقْتُلُواْ اولادكم مِّنْ إمْلاَقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكمْ وَإِيَّاهُمْ وَلاَ تَقْرَبُواْ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلاَ تَقْتُلُواْ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكمْ وَصَّاكمْ بِهِ لَعَلَّكمْ تَعْقِلُونَ[1] وَلاَ تَقْرَبُواْ مَالَ الْيَتِيمِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَاوفُواْ الْكيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لاَ نُكلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُواْ وَلَوْ كانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللّهِ اوفُواْ ذَلِكمْ وَصَّاكم بِهِ لَعَلَّكمْ تَذَكرُونَ[2] وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكمْ عَن سَبِيلِهِ ذَلِكمْ وَصَّاكم بِهِ لَعَلَّكمْ تَتَّقُونَ][3]

وإذا أجلنا النظر في تفاصيل هذه الآية، نجد أنها تتفق مع ما جاء في الكتب السماوية المنزلة بل في جميع الشرائع في عناصرها الرئيسة؛ كما ورد عن ابن عباس رضي الله عنه قوله: «هذه الآيات هي المحكمات التي ذكرها الله في سورة آل عمران أجمعت عليها شرائع الخلق، ولم تنسخ قط في ملة» وقد قيل : أنها العشر كلمات المنزلة على موسى ×[4]. وقال كعب الأحبار: هذه الآيات مفتتح التوراة[5].

---

[1]- فكري، الاب انطونيوس، تفسير الكتاب المقدس، ص111.

[2]- ابوضابا، هيثم، الوصايا العشرة من مفهوم مسيحي، ج4، ص92.

[3]- الانعام/6: 151–153.

[4]- القرطبي، محمد بن احمد، الجامع لاحكام القرآن، ج 7، ص 123– 126؛ الثعالبي، عبدالرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج 3، ص 225– 229.

[5]- ابن عطية، محمد عبدالحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 2، ص 361؛ ابوحيان الاندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ج 4، ص250.

وعلى هذا فإن الآيات الكريمة تريد إعادة التذكير بما نهى عنه سبحانه في الديانات السابقة وكأن هذه الآيات تشير إلى حالة التقارب والتوافق بين جميع الديانات الموجودة فعلاً والمنسوخة منها، أي أن هناك وحدات مشتركة بين جميع الديانات السماوية توحّد الهدف وتسعى إلى الإبقاء على الثوابت والقيم التي جاءت بها جميع الرسالات مما يعني أن الإسلام ختم ذلك بما نادى به من الأوامر والمناهي التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية وهذا النداء الذي اشرنا إليه يتمثل بقوله تعالى : [قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ][1]

وعلى هذا فإن الآيات الكريمة تريد إعادة التذكير بما نهى عنه سبحانه في الديانات السابقة وكأن هذه الآيات تشير إلى حالة التقارب والتوافق بين جميع الديانات الموجودة فعلاً والمنسوخة منها، أي ان هناك وحدات مشتركة بين جميع الديانات السماوية توحّد الهدف وتسعى إلى الإبقاء على الثوابت والقيم التي جاءت بها جميع الرسالات مما يعني أن الإسلام ختم ذلك بما نادى به من الأوامر والمناهي التي جاءت بها جميع الشرائع السماوية وهذا النداء الذي اشرنا إليه يتمثل بقوله تعالى: [قُلْ تَعَالَوْاْ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ] ويوافقه في ذلك أبو عبد الله أحمد بن محمد القرطبي في تفسيره إذ يقول: «قوله تعالى : قل تعالوا اتلُ ـ أي تقدّموا واقرأوا ـ هنا يقيناً كما أوحى إليّ ربي، لا ظناً ولا كذباً كما زعمتم، ثم بيّن ذلك فقال "ألا تشركوا به شيئاً" يقال للرجل: تعال، أي تقدم، وللمرأة تعالي، وللإثنين والاثنتين تعاليا، ولجماعة الرجال تعالوا، ولجماعة النساء تعالين؛ قال الله تعال "تعالين امتعكنَّ" وجعلوا التقدّم ضرباً من التعالي والارتفاع، لأن المأمور بالتقدم في أصل وضع هذا الفعل كأنه كان قاعداً فقيل له تعال، أي ارفع شخصك بالقيام، واتسعوا فيه حتى جعلوه للواقف والماشي.» [2]

إنَّ ظاهرة التكفير المنفَلِت، واحدةٌ من أخطر الظواهر التي تُعاني منها أمّتنا الإسلاميَّة، والتي ساهمت إلى حدٍ بعيدٍ في إضعاف عُرى الوحدة بين المسلمين، والتي

---

[1]- أنعام/ 6، 151.

[2]- القرطبي، محمد بن احمد، الجامع لاحكام القرآن، ج7،ص 227.

كانت السبب في تمزيق المجتمعات الإسلاميَّة وإحلال التنازع فيها بدل التَّعاون، والفُرقة بدل الوحدة[1].

9. المحبة والرحمة بين الإنجيل والقرآن :

ما من مبدأ يوازي المحبة أهمية في المسيحية والرحمة في الإسلام فأهم تعريف لله في المسيحية هو أنه محبة.

وما من صفة تطلق على الله في القرآن الكريم بالكثافة التي تطلق بها صفة الرحمة علىه الله المحبة الرحمن الرحيم هو الله الواحد الذي تدعو المسيحية والإسلام على السواء إلى الإيمان به وعبادته.

وفي الديانتين لا يكون التعبير عن الإيمان بالإعلان الشفوي وحسب بل أيضا بالدرجة الأولى يفعل المحبة والرحمة تجاه الناس.

أحاول في هذه المساهمة أن ألقي الضوء على مفهومي المحبة والرحمة في الكتب المقدسة مركزتا اهتمامي على كتب العهد الجديد ثم سأتناول بعد ذلك عرض المفهومين في القرآن الكريم.

واقتصاري في معالجة الموضوع على الكتب المقدسة عائد إلى موقعها التأسيسي في الديانتين والدور الذي تلعبه نصوصها في تطوير التعاليم والممارسات الدينية.

ما يلفت النظر إجمالا في كل الديانتين هو أنها تعتبر أن المحبة عملا متبادلا بين الله والبشر، إذ أن محبة الله له تستدعي محبتهم له ومحبة الإنسان كله لا تكون من غير مودة في القربى.

أما الرحمة فكونها موقف شعوري من طرف أقوى نحو طرف أضعف يجعلها على صورة بموقف الله من البشر.

لكن هؤلاء مدعوين بدورهم إلى الرد على رحمة الله لهم بأن يرحم بعضهم بعضا فيردوا بذلك بعضا من رحمة الله لهم. هذا في الإجمال، فكيف يبرز كل من الكتابين الإنجيل والقرآن مفهومي المحبة والرحمة ؟

كما سبق أن ذكرت يعرف العهد الجديد بالله على أنه محبة[2].

---

[1]- انظر: الوحدة الإسلامية في فكر الإمام الخميني، إعداد مركز الإمام الخميني، نشر جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، بيروت، 2007م، ط1، ص 14 18.

[2]- أنظر رسالة يوحنا الأولى 4 : 8

وورد هذا القول على لسان الرسول يوحنا بحد ذاته مدلولان لابد من التنويه بهما فيوحنا هو التلميذ الحبيب الذي اتكأ صدر السيد المسيح في عشائه الأخير مع تلاميذه[1].

ولعل هذه المحبة التي أظهرها هذا التلميذ نحو معلمه هي التي جعلت هذا الأخير يدعو أمه أما له.

10. ماذا يعني القول إن الله محبة ؟

أول ما يتبادر في الذهن هو أن هذا القول يعرف بطبيعة الألوهية أنها في حد ذاتها محبة. هذا ما يؤمن به المسيحيون أو عليهم أن يؤمنوا به إن كانوا أمناء لما تسلموه من العقائد الإيمانية.

إن المحبة في المسيحية هي أسمى وأرفع درجات مخاطبته إياهم إن محبة الله للإنسان غير محدودة ليست بحسب الكتاب المقدس على عقم بل كله محبة الإنسان لله.

فالإنسان مدعو إلى أن يتفاعل ومحبة الله. بأن يبادله المحبة من كل قلبه كما تصرح به الوصية الأولى من الوصايا العشر. ويؤكد كلام السيد المسيح.

إلا أن الكتاب المقدس يؤكد أن محبة الإنسان للإنسان تساوي في قيمتها لدى الله محبة الإنسان بالله.

جاء في رسالة يوحنا الأولى 4 : 2 بأن من لم يحب أخاه الإنسان لا يقدر أن يحب الله وهذا يتفق تماما وما يرد في إنجيل متى على لسان السيد المسيح فيمنح الملك الأبدي لمن أطعم الجياع وأوى الغرباء وكسى العراة وعاد المرضى، أما من لم يفعل ذلك فيحكم عليه بالعذاب الأبدي[2].

نستخلص مما سبق أن المسيحية تقرن بين محبة الإنسان لله ومحبة الإنسان للإنسان بحبل لا يسمح بالفصل بينهما البتة.

إن المحبة في المسيحية والرحمة في الإسلام كلاهما نعمة يغدقها الله عز وجل على البشر لأن تكون مبدأ الحياة وأساس التعامل بين الناس ليس فقط بين أبناء الدين الواحد.

---

[1] - أنظر إنجيل يوحنا 31 : 32 – 33

[2] - أنظر إنجيل متى 52 : 13 – 64

لذلك تلتقي الديانتان في خلق إطار مجتمعي غير قائم على ضرورة أن يعيش الناس من أجل أن يسدوا حاجاتهم المادية، الاجتماع البشري التي تدعو إليه المسيحية والإسلام يؤسس على أن الله المحبة الرحمن الرحيم خلق الناس من نفس واحدة ويسكب عليهم من محبته ورحمته ما يجعلهم يحبونه ويحب بعضهم بعضا متراحمين.

إننا بحاجة إلى مناخ نستعين فيه الأجواء الرسالية في المسيحية والإسلام ليشعر المسيحيون والمسلمون أنه من الممكن أن ينفتحوا على درب مشترك مع كل الخصوصيات التي تميز أحدهما عن الآخر إنني أتصور أن مرحلة الحوار هي مرحلة إيجاد المناخ الملائم للقاء مسيحي، إسلامي يزيل الكثير من الحساسيات ويفتح الكثير من المشاعر الحميمة.

إن الإسلام لا يلغي الآخر وليس دين عنف بل دين رفق والعنف في الإسلام هو حركة وقائية أو دفاعية ضد اعتداء الآخر، وليس حركة هجومية ضد إنسانية الآخر. لهذا فإن القرآن ركز مواجهته في ساحة الصراع مع الآخرين بين خطين، حيث

الأستاذة: نادية الوافي

لا تستوي الحسنة مع السيئة، فالحسنة أسلوب رقيق والسيئة أسلوب عنف قال تعالى : "ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم" صدق الله العظيم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

المراجع والمصادر

1. القرآن الكريم.
2. جامع بيان العلم 158/1
3. رواه البخاري، كتاب الأدب، باب إثم من لا يأمن جاره بواثقه، 4/7/103.
4. رواه البخاري في كتاب الأشرية، باب قول الله تعالى : "إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون" 3/6/599، ومسلم في كتاب الإيمان، 76/1.
5. رواه البخاري في كتاب الإيمان، باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، 11/1، ومسلم في كتاب الإيمان، 67/1.
6. الإيمان لأبي عبيدة.
7. رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحيط عمله وهو لا يشعر 1/1/22، ومسلم، كتاب الإيمان، 81/1.
8. إيثار الحق على الخلق، ص : 389 – 390
9. رواه أبي شيبة في المصنف (37942).
10. رواه أحمد في مسنده 180/5، أبو داود في سننه، كتاب السنة، باب في فتل الخوارج 118/5، وصححه الألباني في تخريجه لكتاب السنة لابن أبي عاصم.
11. رواه أحمد في مسنده 215/1، والنسائي في سننه، كتاب مناسك الحج، باب التقاط الحصى، 3/5/268، وصححه الألباني.
12. رواه مسلم، كتاب العلم 2055/4.
13. أخرجه مسلم، كتاب الإيمان، 80/1.
14. الزواجر عن اقتراف الكبائر. 273/2
15. أخرجه البخاري، كتاب الأدب، باب ما ينهى من السباب واللعان، 4/7/111
16. الكتاب المقدس : العهد القديم
17. الكتاب المقدس : العهد الجديد.
18. الفغالي، الخوري بولس، المجموعة الكتابية من سيناء الى مؤاب.

19. ظاظا، حسن، الفكر الاسرائيلي اطواره ومذاهبه.
20. فكري، الأب انطونيوس، تفسير الكتاب المقدس، تفسير سفر الخروج.
21. الفغالي، الخوري بولس، المجموعة الكتابية، من العبودية الى العبادة.
22. ابوضابا، هيثم، الوصايا العشرة من مفهوم مسيحي، ج3.
23. سليم بسترس، المطران كيرلس، المسيحية في أخلاقياتها،.
24. باشا، حبيب وآخرون، التعليم المسيحي للكنيسة الكاثوليكية.
25. القرطبي، محمد بن احمد، الجامع لأحكام القرآن، ج 7، ص 123ـ 126؛ الثعالبي، عبد الرحمن بن محمد، الجواهر الحسان في تفسير القرآن، ج 3.
26. ابن عطية، محمد عبدالحق، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ج 2، ص 361؛ ابوحيان الاندلسي، محمد بن يوسف، البحر المحيط، ج 4.
27. الوحدة الإسلامية في فكر الإمام الخميني، إعداد مركز الإمام الخميني، نشر جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، بيروت، 2007م، ط1.